هجمات البدو وآثارها الاقتصادية والاجتماعية فى ريف الدلتا فى العصر العثمانى

جمال كمال محمود[1]

شكَّل البدو[2] عنصرا مهما فى تاريخ مصر منذ الفتح العربى الإسلامى لها، حيث بدأت هجرات القبائل العربية تتوالى على مصر مع كل وال جديد. ولعب البدو دورًا إيجابيًا تارة وسلبيًا تارة أخرى، ومن ثمَّ تباينت علاقتهم بالسلطة الحاكمة وكذلك بالمجتمع المصرى، فتارة يكونون عنصرًا فعالا للسلطة والمجتمع على حدٍ سواء كما كان الحال فى أغلب عصور مصر الإسلامية، وتارة يكونون عنصرًا سلبيًا يقض مضاجع الجميع، كما كان الحال فى عصر سلاطين المماليك الذى توقفت فيه الهجرات العربية إلى مصر؛ بسبب كراهية المماليك للعنصر العربى، وقد أنف العُربان من الخضوع للمماليك وقاموا بالعديد من الثورات، حتى وصل العثمانيون إلى الشام ثمَّ مصر، وهنا انقسم العُربان إلى فريقين: فريق أيَّد العثمانيين ووقف بجانبهم، والآخر وقف بجانب المماليك. وعقب انتصار العثمانيين تم مكافأة الفريق الأول، وأنعم السلطان العثمانى على البعض من شيوخهم.

وقد حاول العثمانيون استمالة العُربان وأوكلوا إليهم جزءًا من النظام الأمنى خاصة العُربان المتاخمين للقرى وهم المستقرون أو شبه المستقرين؛ لكى يصدوا هجمات العربان الرحل، وكان ذلك مقابل أجر معين، ومنحتهم كذلك مساحات من الأراضى الزراعية وأعفت جزءًا منها من الضرائب. ولكن ظلَّ قطاع كبير من العربان يعتمد على السلب والنهب، واعتبروا أنَّهم أحق بالحكم من العثمانيين والمماليك.

وقد توالت هجمات العربان خلال العصر العثمانى على الريف وعلى قوافل الحج والأديرة حتى العربان الذين احترفوا الزراعة فإنَّهم فى الغالب لم يتخل الكثير منهم عن عادتهم القديمة الخاصة بالسلب والنهب. ولم يضع وصول الحملة الفرنسية إلى مصر حدًا لذلك بل تعرَّض الفرنسيون أنفسهم لنهب العربان.

---

(١) دكتواره فى التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

(٢) سوف نستخدم كلمة البدو للدلالة على العربان والعكس.

ولم يقف الفلاحون مكتوفى الأيدى أمام تلك الهجمات، بل حاولوا مواجهتها بالسلاح أحيانًا، والانسحاب وهجر القرى أحيانًا أخرى، كما لم تقف الإدارة متمثلة فى العثمانيين والمماليك موقفا سلبيا من هذه الهجمات، بل جردوا لها الحملات العسكرية للقضاء عليها ولجأوا لضرب العربان بالعربان؛ حتى يتم إنهاك كلا الفريقين وآتت تلك الحملات بعض النتائج المثمرة؛ حيث نجح على بك الكبير فى كسر شوكة العربان فى الدلتا والصعيد على السواء.

وكان لتلك الهجمات عواقب وخيمة على المجتمع المصرى اقتصاديًا واجتماعيًا ولاشك أنَّها أعاقت بشكل أو بآخر حركة التنمية، حتى فطن محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر إلى فكرة توطين هؤلاء البدو وجعلهم قوة فعالة فى المجتمع المصرى.

ماهية البدو:

يُطلق اسم «بدو» Nomads على سكان الصحراء المتنقلين والذين يعيشون بالقرب من وادى النيل فى الدلتا والصعيد. وقد صنَّف ابن خلدون البدو إلى ثلاثة مستويات أولها: رعاة الإبل، وثانيها: رعاة الشاة ورعاة البقر، وثالثها: البدو المزارعون الذين مارسوا شكلاً من أشكال الاستقرار حول الآبار والعيون والوديان[1].

وصنَّف أحد المحدثين البدو إلى أربع فئات:

البدو المرتحلون الذين يعتمدون بشكل أساسى على الجمال.

البدو المرتحلون ارتحالاً محدودًا والذين يعتمدون على الغنم والماعز.

البدو المرتحلون ارتحالاً موسميًا، ويمارس بعضهم الترحال فى أوقات معينة ويستقر معظمهم فى مواطنهم الأصلية.

البدو المزارعون وهم يستقرون فى الغالب فى أطراف الصحارى قريبًا من الحضر[2].

ويعتمد البدو المرتحلون بشكل كبير على الجمال، وينتشرون على حافة وادى النيل وفى قلب الصحراء، وهؤلاء يعتنون بتربية الجمال لاستخدامها فى تنقلاتهم، وهم مضطرون للتنقل الدائم بين مواطن الكلأ، ورحيلهم يجرى وفق نظام محدد تفرضه أحوال المياه ومناطق الرعى التى يعرفونها جيدًا، وغالبًا ما يضربون خيامهم بجوار الآبار فى الصحراء؛

(١) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة (د. ت)، ص ١١١.

(٢) صلاح مصطفى الفوال: تنمية المجتمعات الصحراوية، القاهرة ١٩٦٨م، ص١١٠، ١١١.

حيــث تحصــل على موارد المياه، وهذه الفئة من البدو لا تشــتغل بالزراعة لو أتيحت لها الفرصة لذلك، وبالتالى لا تميل إلى الاستقرار[١].

وهذا النوع من العربان كثيرو العدد، ويمتلكون عددًا كبيرًا من الخيول والجمال، وكانوا يمدون القوافل التجارية بالجمال، كما يمتلكون كميات كبيرة من الأســلحة، ويسمى هؤلاء البدو باسم عرب الخيش أى عرب الخيام[٢] .

أمَّا البدو المرتحلون ارتحالاً محدودًا فهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الاستقرار، ويعيش هؤلاء بين الأراضى الزراعية والصحراء فى خيام عادة. ويشتغل هؤلاء بالزراعة، ويشكل هؤلاء العربان الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدًا فاصلاً بين العرب المزارعين وبين العرب الرحل. وهؤلاء لا يشكلون جزءًا من سكان القرى، ولا يزرعون مطلقًا بأيديهم، ولا يغيرون من أماكن إقامتهم، ولهم شيخ من بينهم، ويحترم الفلاحون هؤلاء العربان ويحرصون على إرضائهم[٣].

والبدو المرتحلون ارتحالاً موسميًا هم الأقرب إلى الاستقرار منهم إلى البداوة، وبرغم ارتباط هؤلاء ارتباطًا مؤقتًا بالأرض التى يزرعونها فإنَّهم يعتبرون أنفســهم رعاة قبل كل شــىء، ويسكنون وقت فلاحة الأرض وحصادها فى أكواخ صغيرة من أغصان الشجر، وبعد انتهاء موســم الزراعة تلجــأ تلك القبائل إلى التنقل كالبدو الرحــل وراء الماء والكلأ لفترة قصيرة، ويعودون فى أواخر فصل الربيع بقطعانهم إلى مواطن زراعتهم[٤].

والقبائل التى اســتقرت أطلق عليها اســم البدو المزارعون وهؤلاء أقبلوا على الزراعة منذ فترة مبكرة من دخول الإسلام، والبعض الآخر احترف الزراعة منذ دخول العثمانيين مصر، وقد ازدادت أعدادهم بشكل كبير، وقد طوَّر هؤلاء الزراعة بشكل أكبر من الفلاحين، وقرى هؤلاء العربان أكثر ازدحامًا بالسكان وتتميز قرى هؤلاء العربان عن القرى الأخرى، ويمتلك هــؤلاء العربان الخيل والجمال بأعداد كبــيرة مثلهم مثل العربان الرحل. ويتميز هؤلاء عن

(١) إيمان عامر: العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاســع عشــر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) أندريوســى: رحلة إلى وادى النطرون، جـ ٢، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشــايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٧٠.

(٣) جومار: العرب والعربان فى مصر الوســطى، جـ ٢، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشــايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٢٠٩.

(٤) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٣٠.

الفلاحين بتقاطيع وجوههم وطباعهم وكل خصالهم، فلقد استمر الدم العربى يتدفق فى عروقهم دون أدنى اختلاط وهم يشبهون تمامًا العربان الرحل المحاربين، وقد احتفظوا بالشجاعة والضراوة[1].

ويوجد فى كل قرية من قرى هؤلاء العربان عدد من المشايخ، ويعيش هؤلاء فى شقاق فيما بينهم، وتنقسم قراهم إلى أجزاء لكل منهم نفوذه فى جزء منها، وكثيرًا ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم إلى الاقتتال[2].

وللقبيلة نظام خاص بها، يتميز عن سائر الأنظمة الأخرى السائدة فى المجتمعات غير القبلية فهو نظام اجتماعى له قوانينه وتقاليده وأعرافه وله شخصيته وسماته، وهو ما نسميه بالقبلية، فالقبلية إذن سلوك خاص يحفظ للقبيلة مصالحها وبقائها[3].

فالقبيلة مجتمع صغير، يقوم على رئاسته ورعاية شئونه شيخ القبيلة، وهو يتولى منصبه عن طريق الوراثة، ويشترط فيه أنْ يكون قويًا واسع الصدر كريمًا، وعلى من يسعى لهذا المنصب أنْ يستخدم مهارته وكياسته لإقناع أفراد قبيلته باختياره، وعلى رئيس القبيلة كذلك أنْ يعقد السلم وأنْ يشن الحرب وأنْ يقضى فى كل ما يمكن أنْ يكون نافعًا للقبيلة[4].

ونخلص من ذلك إلى تأصل النظام القبلى لدى البدو الرحل منهم وشبه المستقرين والمستقرين مع اختلاف طفيف تفرضه ظروف المكان والزمان وهذا النظام متأصل لدى البدو منذ هجراتهم الأولى إلى مصر.

هجرات القبائل العربية إلى مصر:

بدأت هجرة القبائل العربية إلى مصر منذ الفتح العربى[5] ثمَّ توالت هجرة القبائل العربية إلى مصر مع كل وال جديد، حيث كان يرافقه جيش كبير غالبيته من العرب، وكان ذلك يشجع القبائل التى ينتمى إليها هذا الحاكم على الهجرة إلى مصر[6].

---

(١) جومار: المصدر السابق، ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٣) عبد الله خورشيد البرى: القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، دار الكتاب العربى، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٢٧.

(٤) أندريوسى: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٥) أحمد لطفى السيد: قبائل العرب فى مصر، جـ ١، القاهرة ١٩٣٥م، ص ٩.

(٦) Mac Michael, A history of Arabs in the Sudan, vol. 1, Cambridge, 1922, p. 159, 160.

وإلى جانب ذلك نجد الدافع الدينى والاقتصادى، وطبيعة شبه الجزيرة العربية الطاردة للسكان[١].

وفى العصر الأموى وفد إلى مصر اثنان وعشرون قبيلة عربية، ووصل عدد القبائل العربية الوافدة إلى مصر فى العصر العباسى ثلاثا وثلاثين قبيلة[٢] وفى العصر الفاطمى شجَّع الفاطميون القبائل العربية المستقرة على حدود مصر الشرقية – والتى كانت تشكل خطرًا عليهم – على الهجرة إلى مصر[٣].

وفى العصر الأيوبى ازداد شأن العربان لدرجة أنَّ أصبح هناك موظف مختص بشئون العربان وقبائلهم[٤].

أما فى عصر سلاطين المماليك فقد توقفت الهجرات العربية إلى مصر بسبب كراهية المماليك للعنصر العربى، وقد أنف العربان من الخضوع للمماليك لدرجة أنْ ثارت إحدى القبائل وقال زعيمها «أنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنَّا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد!»[٥].

ومن المعروف أنَّ العربان لم يكن لهم من حسن النظام والمهارة الحربية وقوة الاستعداد ما يناظر المماليك، ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلاً فى وجه خصومهم، وفى كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان. ومع ذلك كانوا يعودون إلى الثورة بعد قليل حتى سبَّبوا الكثير من الفوضى والمتاعب فى ذلك العصر، من ذلك ثورة حصن الدين بن ثعلب الذى ثار فى عهد السلطان المعز أيبك الذى أرسل له جيشًا بقيادة الأمير فارس الدين أقطاى الذى أنزل بهم الهزيمة وأخضعهم عام ١٢٥٣م[٦].

وظلَّت العلاقة بين العربان والمماليك قائمة على الكراهية، وبالرغم من أنَّهم حازوا الكثير من الامتيازات، وتمتَّعوا باستقلال محلى محدود فى إدارة مشيخاتهم، إلاَّ أنَّهم لم ينسوا

(١) سميرة فهمى: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية ٩٢٣هـ – ١٢١٣هـ/ ١٥١٧م – ١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٤٦.

(٢) مصطفى كامل الشريف: عروبة مصر من قبائلها، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٦، ٢٧.

(٣) المقريزى: البيان والإعراب عمن بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٩٦١م، ص ٥٢.

(٤) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ط ٣، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٣٢٤.

(٦) نفس المرجع السابق والصفحة.

الكراهية والحقد الدفين فنفَّثوا عنه فى ثوراتهم المستمرة، ونهب إقطاعات الأمراء، وقتل الفلاحين، والاعتداء على الحجاج، والامتناع عن دفع الخراج[1].

وقد استمر الصدام بين العربان والمماليك ولم يتخلوا أبدًا عن فكرة الوصول إلى حكم مصر، متناسين فى ذلك طبيعة العصر والمتغيرات التى حدثت فيه، والتى مكَّنت المماليك من فرض سيطرتهم على المنطقة، وحرمان هؤلاء العربان من تحقيق حلم إقامة سلطنة عربية[2].

ولم تسلم المدن الكبرى فى عصر المماليك مثل أسيوط والإسكندرية بل القاهرة من عبث العربان وإغارتهم عليها أو على أطرافها، بغية السلب والنهب، ولم تنقطع تلك الهجمات حتى فى الساعات الحرجة، فعندما أغارت جيوش ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م ونهبت المدينة، كان العربان يدخلون فى الليل ويستمرون فى النهب حتى طلوع الفجر[3].

وظلَّ عدم الارتياح بين المماليك والعربان سائدًا، حتى همَّ السلطان الغورى بالخروج لملاقاة السطان سليم، فأراد أنْ يشرك معه فى جيشه عددًا من خيَّالة العربان فى الشرقية والغربية والصعيد؛ ولكنَّه سرعان ما صرف نظره عن هذا الأمر بناءً على نصيحة أمراء الجند الذين خشوا مغبة إشراك هؤلاء العربان فى الجيش المملوكى[4].

وهكذا ظلَّ العربان مصدرًا خطرًا من مصادر الفتنة وعدم الاستقرار فى عصر سلاطين المماليك.

أهم القبائل العربية فى الدلتا فى العصر العثمانى:

وُجد فى مصر مجموعة كبيرة من القبائل العربية انتشرت فى طول البلاد وعرضها، وسوف نقصر حديثنا على أهم قبائل الدلتا.

– **قبيلة أولاد على:** وهى أهم القبائل والواقع أنَّها تشتمل على عدة بطون تُشكِّل كل منها قبيلة فى حد ذاتها. وأقامت قبيلة أولاد على فى البحيرة بصفة أساسية وإنْ

(١) إبراهيم على طرخان: النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣٣٨.

(٢) علاء طه رزق: دراسات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٧١.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٥٣، ٥٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ ٥، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٣١.

انتشــر بعضهم فى الصعيد والفيوم والإسكندرية، ولها عدة أفرع منها البهجة، وبنو عون، والجوابيس، والجميعات، والهوارة، والربايع، واللزد، والنجمة، والتمامة[١].

وغالبًا ما تحمل القبيلة اســم شيخها عند تكوينها أو تحمل اسم إحدى الفترات الهامة التى مرت بها، ويظلَّ هذا الاسم تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل[٢].

وقد انتشــرت قبيلة أولاد على وفروعها فى الدلتا شــرقًا وغربًا وبعض مناطق الصحراء الغربية الواســعة، والدراسة الأنثروبولوجية لقرى البحيرة قلما نجد قرية إلاَّ وبها عائلات تنتمى إلى هذه الفروع[٣].

– **قبيلة الهنادى:** نزحت إلى مصر فى القرن الثامن عشــر قادمة من طرابلس، واستقر معظــم أفرادهــا فى البحيرة، وجزء منها فى الشــرقية، وكانت تمثل البــدو الرحل الذين يعيشــون على الرعى والســلب والنهب، وكانت من أقوى عربــان البحيرة، وقد بلغ عدد فرسانها أكثر من ثمانمائة فارس[٤].

– **قبيلــة الجوابى:** اســتقرت فى البحيرة، وكانت تتجول بحثًــا عن المراعى اللازمة لإمــداد قطعانها بالغذاء، وكانت تلك القبيلة تذهــب كل عام من مريوط إلى الصعيد مارين بوادى بحيرات النطرون[٥]، ويحلمون معهم كميات من الملح مقابل ثمن محدد، كما يشترون البلــح الطازج والمجفف من الواحات لكى يبيعونه لصغار التجار فى مصر، ويربون القليل من الخيل، وفرسان هذه القبيلة لا يزيدون على الأربعين[٦].

---

(١) سجلات محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥، ٩ شوال ١١٠٣هـ/ ١٨ يونيو ١٦٩٢م، انظر: ملحق [٤]؛ محمد محمود الســروجى: قبائل أولاد على وعلاقتها بالســلطات العثمانية الحاكمة فى مصر، بحث ضمن أعمال الندوة العلمية التى أقامتها هيئة فولبرايت بالقاهرة فى الفترة من ٦ – ٨ ديســمبر ١٩٩٦؛ إشــراف دانيا كريسيليوس وآخرون، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١١٧.

(٢) دى بــوا إيمه: القبائــل العربية فى صحراوات مصر، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشــايب، جـ ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٧٣.

(٣) عبــد الرحيــم عبد الرحمن: المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى، المجلــة التاريخية المغربية، مطبعة الاتحاد التونسى، تونس ١٩٩٢م، ص ٣٢.

(٤) ليلــى عبــد اللطيف أحمد: سياســة محمد علــى إزاء العربان فى مصر، ط ١، دار الكتــاب الجامعى، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٣.

(٥) للمعلومات عن وادى النطرون، انظر: ماجد عزت إســرائيل: وادى النطرون فى القرن التاســع عشــر، دراسة تاريخية وثائقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م.

(٦) شابرويل: المصريون المحدثون، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، جـ ١، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٢٢، ١٢٣؛ المصدر السابق، ص ٦٨، ٦٩.

– **قبيلة الطميلات:** ومقرها شـرق ولاية الشرقية، ولذلك سمىَّ الوادى الممتد فيه ترعة الإسماعيلية إلى بحيرة التمساح باسمها[١].

– **قبيلـة مطير:** وهم بطن من عبس ويسـموا أيضًا بنو عطـا، ودخلوا مصر فى العصر الفاطمى، وسكن جزء منهم فى الجيزة، ويسمون باسم «عرب الحصار» وجزء منهم بالشرقية متفرقين فى قرى بلبيس[٢].

– **قبيلة بنى بقر:** تركزت فى الشرقية، وتعاون أحد أشهر شيوخها ويدعى أحمد بن بقر مع السلطان سليم العثمانى[٣] ووجد من هذه القبيلة فروع فى الدقهلية[٤].

– **قبيلة حسن طوبار:** استقرت تلك القبيلة فى المنصورة.

– **قبيلة الجويلى:** وتقيم على حدود ولاية البحيرة، وتضم أكثر من أربعمائة فارس[٥].

– **قبيلة الفرجان:** واستقرت فى الشرقية[٦] وكانت لها فروع فى البحيرة والإسكندرية.

– **قبيلة أولاد زهير:** واسـتقرت فى الشـرقية، وأشـارت إليها الوثائق أحيانًا باسـم «الزهايرة»[٧] ووجد لها فروع فى الدقهلية[٨].

– **قبيلة الجميعات:** واستقرت فى البحيرة.

– **قبيلة العليقات:** اسـتقر فريق منها فى القليوبية، وفريق آخر فى الصعيد، ومارس أفرادها التجارة[٩].

---

(١) أحمد لطفى السيد: المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) ابـن زنبـل الرمال: آخره.. المماليك أو واقعة السـلطان الغورى مع سـليم العثمانى، تحقيق: عبد المنعم عامر، أشرف على الطبعة والتقديم لها عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٥٨.

(٤) سجلات محكمة الدقهلية: س ١٣، ص ١٩٤، م ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ/ ٢٨ أغسطس ١٦٩٨م، انظر: ملحق [١]؛ نفسه: س ٥، ص ٥٨، م ١٥٤، ٨ شعبان ١٠٨هـ/ ٢١ ديسمبر ١٦٧٠م، انظر: ملحق [٥].

(٥) ليلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٤.

(٦) على بركات: تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣م – ١٩١٤م وأثره على الحركة السياسية، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٢٦٨.

(٧) محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، م ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م، انظر: ملحق [٣].

(٨) محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠، ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ/ ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م، انظر: ملحق [٢].

(٩) نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، تحقيق: صبرى العدل، إشراف ودراسة: أحمد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ١١٣، ١١٤.

– **قبيلة أولاد سليمان:** وفدت إلى مصر من المغرب، وهى قبيلة حربية كبيرة، وقد استقرت فى الشرقية[1].

– **قبيلة الحويطات:** سكن عدد كبير منهم فى القليوبية[2].

– **قبيلة العايد:** استقرت فى الشرقية فى بلبيس، وقد وجد فروع من العيايدة فى الدقهلية والقليوبية والمنوفية، وقام أفرادها بنشاط زراعى مثلهم مثل الفلاحين[3].

– **قبيلة الحبايبة:** ويطلق عليهم اسم أولاد حبيب، وسكنوا فى الوجه البحرى وتنقل البعض منهم بين ولايات الوجه البحرى والقبلى[4].

– **قبيلة أولاد وافى:** من القبائل التى تنتمى إلى سليم، والتى نزلت إلى مصر من المغرب فى القرن الثامن عشر، وكانت تعد من القبائل العربية الغنية المستقرة، وكانت معروفة بكثرة رجالها وخيلها، واستوطن البعض منها الوجه البحرى[5] والبعض الآخر الوجه القبلى[6].

تلك كانت أهم القبائل العربية فى الدلتا فى العصر العثمانى، وكانت هناك قبائل أخرى ليست بنفس الأهمية من حيث الدور الذى قامت به فى تلك الفترة، ولا يتسع المجال فى دراستنا هذه أنْ نعرض لكل القبائل العربية فى ذلك الوقت. وقد تباين موقف البدو بالطبع من الفتح العثمانى لمصر.

موقف البدو من الفتح العثمانى لمصر:

عقب نجاح العثمانيين فى إنزال الهزيمة بالمماليك فى موقعة مرج دابق بالشام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، اتجه السلطان سليم العثمانى لفتح مصر، والتقت قواته بقوات السلطان المملوكى طومان باى فى موقعة الريدانية ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، ودارت الدائرة على المماليك وانهزموا،

(١) مصطفى كامل الشريف، المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) شابرويل: المصدر السابق، ص ٢٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٥.

(٤) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان: الدرة المصانة فى تاريخ الكنانة، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩م، ص ٢٤٤.

(٥) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، جـ ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٤٤.

(٦) دار الوثائق: دفتر التزام رقم ١٠٠١؛ نفسه: دفتر تقسيط التزام رقم ١٩٩٠م.

وانتهى الأمر بشنق السلطان طومان باى على باب زويلة بالقاهرة فى أبريل ١٥١٧م[١]. وممَّا لاشك فيه أنَّ من الأهمية بمكان التعرف إلى موقف البدو من الفتح العثمانى؛ حيث انقسم البدو إزاء تقدم العثمانيين نحو مصر إلى فريقين، الفريق الأول: اتخذ جانب المماليك والفريق الثانى: اتخذ جانب العثمانيين، ومعنى ذلك أنَّ العربان لم تُخلص إخلاصًا تامًا للمماليك وكانت العلاقات بين الطرفين فى الغالب سيئة – كما سبق أنْ رأينا – فعندما أمر طومان باى الكشاف – حكام الأقاليم – ومشايخ العربان فى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م أنْ يجمعوا عشرين ألف فارس من العربان، أشار عليه بعض الأمراء بأنه لا فائدة منهم، فأمر السلطان برجوعهم إلى بلادهم؛ برغم شدة حاجته إلى أى جندى[٢].

وقد تخلَّت بعض القبائل عن مساعدة السلطان طومان باى، حيث ذكر ابن زنبل الرمال مؤرخ الفتح العثمانى الذى تتجلى أهميته فى معاصرته لذلك الفتح، أنَّ عربان غزالة عندما التقوا بالسلطان طومان باى «سبوه وشتموه» وطلبوا منه الكف عن محاربة السلطان سليم، وقالوا له: «إنْ لم ترجع عن محاربة السلطان سليم وإلاَّ كلنا كنا عليك واخرج من أرض مصر فإنَّكم قد قتلتم منا خلقًا كثيرًا»[٣]. وهنا يستدعى زعيما عربان غزالة حماد بن خبير وأخوه سلاَّم ذكريات الصراع الذى دار بين المماليك وبين العربان طوال العصر المماليكى، والذى كان النصر حليف المماليك، لتنظيمهم وحسن إدارتهم للمعارك مع العربان. وليس معنى ذلك أنَّ كل العربان كانوا على نفس الشاكلة؛ لأنَّه حتى بعد هزيمة طومان باى فى الريدانية انضمَّ إليه «نحو سبعة آلاف من العربان محبة فيه»[٤].

أمَّا الفريق الثانى الذى ساند العثمانيين فكان فى مقدمتهم بنى بقر[٥]، وزعيمهم أحمد بن بقر، وتصِفه المصادر بأنَّه «كان قليل الخير سيرته سيئة»[٦]. وقدَّم أحمد بن بقر مساعدات كثيرة

---

(١) Holt, P. M., Egypt and the Fertile Crecent 1516 – 1922, School of Oriental and African Studies, Univ – of London, 1966, p. 91.

(٢) إبراهيم على خان: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٣) ابن زنبل الرمال: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) والصحيح بقار «بفتح الباء وتشديد القاف وفتحها» انظر: الرمال، المصدر السابق، ص ٨٠، حاشية ١٣.

(٦) المصدر السابق، نفسه، ص ٨١.

للعثمانيين، كان منها إقامة جان بردى الغزالى[1] عنده قبل أنْ يتم القبض على السلطان طومان باى[2]. كما قام أحمد بن بقر بالقبض على أحد كبار الأمراء المماليك ويدعى شـار بك الأعور، وأرسل البشارة بذلك للسلطان سليم، وكان ذلك بعد إلقاء القبض على السلطان طومان باى[3].

ولدى بحث الغزالى والعسكر العثمانيين عن طومان باى نزلوا على قبيلة محارب، فخرج لهم حسـن بن مرعى زعيم القبيلة، وأراد أنْ يسـلمهم السلطان طومان باى؛ لأنَّه كان يعلم مكانه، ولكن منعته والدته، وذكَّرته بما كان بينه وبين السلطان طومان باى من صداقة[4].

ولكن فكرة تسليم السلطان طومان باى للعثمانيين ظلَّت تراود حسن بن مرعى، حتى دلَّ العثمانيين فى النهاية على مكانه، وكان ذلك السبب الرئيسى فى إلقاء العثمانيين القبض على طومان باى، وقد أخبر العسـكر العثمانيين السلطان سليم بذلك «إنَّه يستحق كل خير فإنَّه لولا حسـن هذا ما عرفنا له موضعًا». وذهب حسـن بن مرعى مع العسـكر العثمانيين ومعهم طومان باى إلى السلطان سليم[5].

وكان من الطبيعى مكافأة كل من قدَّم المسـاعدة للسـلطان سليم فى الحرب مع المماليك وإلقاء القبض على طومان باى، حيث يذكر «الرمَّال» أنَّه فى الساعة التى أمر فيها السلطان سـليم بصلب طومان باى وقتل الأمير شـاربك، أحضر شيخ العرب حسن مرعى وابن عمه شكر، وشيخ العرب أحمد بن بقر «وخلع عليهم خلعًا عظامًا من أجَّل خلع الملوك» وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده إقطاعًا له بدون مال طوال حياتهم، «ثمَّ أرسلهم إلى بلادهم بعد أنْ أحسن إليهم إحسانًا جزيلاً وأكرمهم إكرامًا عظيمًا»[6].

---

(١) أحد الأمراء المماليك وكان نائبًا على الشـام، ولعب دورًا مهمًا فى مسـاندة الدولة العثمانية إذ قضى على مشايخ العربان المناوئين للحكم العثمانى فى الشـام، وكان يحلم بإقامة دولة مسـتقلة فى الشـام تحت قيادته بعيدًا عن السيادة العثمانيـة، للمزيـد من المعلومات، انظـر: أحمد فؤاد متولى: تصرفات جان بردى الغزالى وخايربك بعد موت السـلطان سـليم الأول (كما تصورها وثيقتان بالفارسـية والتركية العثمانية) بحث ضمن كتاب دراسـات فى تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) الرمال: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٣) نفـس المصـدر، ص ٢٤٧؛ يوسـف الملوانى: تحفـة الأحباب بمن ملـك مصر من الملوك والنـواب، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١١٢.

(٤) الرمال: المصدر السابق، ٢٣٢.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٨.

ولكن لم يدم الأمر لأحمد بن بقر طويلاً، فبعد أنْ خلع عليه السلطان سليم وأبقاه أميرًا على بلاده، واعترف خايربك[1] بإمرته، وعفى عن ابنه عبد الدايم الذى كان من العصاة، عاد عربان الشرقية إلى العصيان، حتى تمكّن إبراهيم باشا[2] من قتل أحمد بن بقر عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م[3].

وعلى أية حال كان ذلك موقف البدو من الفتح العثمانى، فريق وقف بجانب المماليك، والآخـر بجانب العثمانيين، وعقب انتصار الأخيرين كان من الطبيعي مكافأة الفريق الذى وقف بجانبهم، ولم تكن مكافأة الفريق الذى سـاعد العثمانيين حائلاً دون عصيان البعض منهم إذ قاموا بالثورة كما رأينا من بدو الشرقية وزعيمهم أحمد بن بقر.

هجمات البدو:

كانت أكثرية القبائل العربية فى العصر المماليكى تعطى إقطاعات مقابل حمايتها للطرق ومعاقبتها اللصوص وأطلق آنذاك على الزعيم البدوى العادى لقب شـيخ العرب واعتبر من أجناد الحلقة، ومنح الزعيم الأقوى رتبة عسـكرية، وكانـت أحيانًا من نوع طبلخاناة أى أمير أربعين – تحت إمرته أربعون جنديًا – وقد بقيت هذه التنظيمات سارية حتى الفتح العثمانى[4].

وبعد دخوله مصر، حاول السـلطان سـليم اسـتمالة العربان بأنْ أرسـل هدايا لبعض زعمائهـم[5]، ولم يكـن العثمانيون يثقـون كل الثقة فى العربان، ولذلـك حذَّر قانون نامة الكُشَّـاف بحفظ البلاد وحراستها من شر البدو والعربان والعصاة، وإذا حدث منهم عدوان على البلاد، يقوم الكشاف بالقبض عليهم، وقتلهم مع مكافأة من يقوم بذلك من العسكر[6].

---

(١) خايربك: كان من أمراء السلطان الغورى، وانقلب عليه وتعاون مع السلطان سليم الأول فولاه حكم مصر، فكان أول الـولاة العثمانيـين، ومدة ولايته (٩٢٣هـ – ٩٢٨هـ/ ١٥١٧م – ١٥٢٢م) انظر: جمال كمال محمود: الأرض والفلاح فى صعيد مصر فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م، ص ٢٦.

(٢) مدة ولايته غرة جمادى الآخرة ٩٣١هـ/ ٢٦ مارس ١٥٢٥م واستمر واليًا على مصر سبعة أشهر فقط. انظر: أحمد شـلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشـارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء الباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٨م، ص١٠٤ – ١٠٦.

(٣) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٠٥، حاشية ٤٤.

(٤) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثمانى إلى حملة بونابرت، ط ٢، دمشق ١٩٦٨م، ص ١٣٤.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق، جـ ٥، ص ٣٧٩.

(٦) قانون نامة مصر الذى أصدره السـلطان سليمان القانونى لحكم مصر، ترجمة: أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣٣.

وقـد شـدَّد قانون نامه على مشـايخ العربان أنْ يصحبوا معهم فـى تنقلاتهم من تكون لـه ضرورة قصوى وأهمية بالغة من أفـراد جماعة العربان لعدم تحميل الفلاحين كثيرًا من المأكولات والمشـروبات أو إرهاقهم وإزعاجهم، وينبغى أنْ يصحبوا معهم القدر الكافى فقط من الرجال[١].

ونلمس من ذلك محاولة الدولة اسـتمالة العربان، ولذلك أوكلت الدولة جزءًا من النظام الأمنـى إلى العربـان المتاخمين للقرى؛ ليتمكنـوا من التصدى لهجمـات العربان الرحل، وعرف هؤلاء العربان الذين أوكل إليهم الخفارة باسم «العرب المدركين» الذين كانوا يعملون بالزراعة الأمر الذى يمكِّن الإدارة فى الأقاليم من السـيطرة عليهم ومحاسـبتهم إلى حدٍ ما، وكان لهم نظير القيام بهذا العمل أجر معين على كل فدان من مساحة المنطقة الواقعة تحت حمايتهم، كما كانوا يتقاضون زيادة على الأجر المعين لهم «عادة العربان» والتى سـجلتها دفاتر الترابيع ضمن البرانى[٢].

وقد أطلقت الوثائق على هذه العادة اسم «الميز»[٣] من ذلك نجد إقرار العربان فى الدقهلية والغربيـة بأنَّهـم التزموا بخفارة القرى الواقعة فى نطاق هذا الثغر – ثغر دمياط – والتزموا برد ما يسـرق من المواشـى، وألاَّ يتعدوا على الأراضى الزراعية، وأنَّهم جميعًا متضامنون متكافلون فى تعويض ما يسرق من الأهالى[٤].

ونجـد تعهد شـيخا إحدى قرى البحـيرة فى عام ١٠٢١هـ/ ١٦١٣م «بحفظ الناحية بأنفسـهما وخمسة رجال يحضروهم معهم ليلاً ونهارًا وجميع ما يحصل من نقب حايط أو خلع باب أو سـور وحفظ دار الأوسـية» وذلك مقابل أنْ يجعل لهم الأمير محمد جاويش ملتزم الناحية ثمانية عشر فدانًا «جعالة شرعية»[٥].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، ط ٢، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٣٧.

(٣) وهو عادة يتقاضاها العربان من الفلاحين بصفة غير رسمية من قبيل الفردة فى نظير ضمانهم لعدم سرقة المواشى والمحاصيـل مـن هؤلاء الفلاحين. انظر: عبد الحميد حامد سـليمان: نظم إدارة الأمن فـى مصر العثمانية، بحث ضمن أبحـاث نـدوة تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانـى ١٥١٧م – ١٧٩٨م، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة عدد ٥٧، مركز النشر لجامعة القاهرة، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٧١.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) سجلات محكمة البحيرة: س ١، ص ٢٥، م ٥٤، ١٤ ذو القعدة ١٠٣٠هـ/ ١ أكتوبر ١٦٢١م.

ووجـد فـى كل قرية عدد من الخفراء الذين يقومون بحراسـة القريـة وزراعاتها وكان عملهم أشـبه بعمل الشـرطة فى الريف، فهم يعملون على عدم حدوث السرقات وغيرها، كمـا ينذرون الأهالى عند اقتراب العربان الذين كانوا يغيرون على القرى، ويسـهر الخفراء خصوصًا لحراسـة دار الأوسـية[١] ويراقبون الجسـور[٢] ليحُولـوا دون العبث بها فى غير مواسمها، وقام بعض العربان بدور الخفراء، وكما أشـرنا أسمتهم الوثائق بالعرب المدركين «أى أصحاب الدرك»، وأصبح لهم نظير قيامهم بعملية الخفارة قدر معلوم من المال على كل فدان أو حصة، وأصبح يُنص على ذلك فى عقد الإيجار الذى يكتب بين الملتزم والفلاحين، حيث أشـارت المصادر إلى تخصيص خمسـة أنصاف ضمن عقد الإيجار لكل فدان للعرب المدركين نظير «غفرهم لطين الحصة»[٣].

ونجد – أحيانًا – تعاونًا بين البدو وبين الإدارة، حيث تشير الوثائق إلى إشهاد مشايخ بدو بنى عونة بولاية البحيرة على أنفسهم أمام القاضى بأنَّ الأمير إبراهيم بك حاكم الولاية قد اهتم بجرف الجسور «جرفًا حصينًا متقنًا حابسًا مانعًا لمياه النيل المبارك»[٤].

واسـتأجر البعـض من العربـان أراضى زراعية مـن ملتزميها[٥] وهم من البدو شـبه المسـتقرين الذين يسـتقرون فترة الزراعة إلى الحصاد، ثم يرتحلـون إلى أنْ يحين موعد الزراعة يزرعون وهكذا.

وتشـير الوثائق إلى أراض باسـم العربـان «أثر العربان» ممَّا يدل علـى تواجد قطاع من العربـان فـى هذه الأراضى لمدة طويلة[٦] كما شـارك قطاع من العربان فـى التزام الأراضى

(١) اسـتيف: دراسـة موجزة حول مالية مصر منذ فتحها السلطان سليم إلى أن فتحها القائد العام بونابرت، وصف مصر، الترجمة العربية، جـ ٥، ترجمة: زهير الشايب، ط ١، القاهرة ١٩٧٩، ص ٧٤.

(٢) كان «لدرك» أمن الجسـور أهمية كبيرة فى ذلك العصر لدرجة تخصيص الروزنامة دفاتر أطلق عليها اسـم دفاتر الجسـور، للمزيد من المعلومات عن الجسـور، انظر: جمال كمال محمود: وثائق الجسـور فى مصر فى العصر العثمانى، بحـث منشـور فى حوليـة دار الوثائق «الروزنامة» دار الكتـب والوثائق القومية، العدد الخامـس، القاهرة ٢٠٠٧، ص ٣٢١ – ٣٤٥.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) سجلات محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥، ٩ شوال ١١٠٣هـ/ ٢٤ يونيو ١٩٦٢م، انظر: ملحق [٤].

(٥) محكمـة البـاب العـالى: س ١٤٦، ص ٢٨٨، م ١٠٠٤، ٣ صفر ١٠٧٩هـ/ ١٣ يوليو ١٦٦٨م؛ محكمة قناطر السباع: س ١٣٦، ص ٢٣٢، م ٩١٠، ٦ شوال ١٠٩٠هـ/ ١٠ نوفمبر ١٦٧٩م.

(٦) محافظ الدشت: محفظة ١٤٥، ص ٣٦٤، ٢٤ محرم ١٠٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٦٢٨م.

الزراعيــة[1] ونجــد أراض أخرى تحت اســم «زراعة عربان»[2] وتعرف هــذه الأرض أيضًا بالحطيطــة، ويذكر لانكريه أنَّها أراض اســتولى عليها العربان عنــوة فى القرى المختلفة، وهذه الأراضى قد تناقلوها بفعل الوراثة، واكتســبت شرعيتها بمضى الزمن، وتسمى أرض الحطيطة فى الدلتا باســم المسموحة ونسبتها ضئيلة، وقد تكون الحطيطة عبارة عن دخول نقدية أو عينية عن مساحة الأرض، وأحيانًا تكون الأرض نفسها[3].

وهذا النوع من الأراضى لم تقرر عليه أية ضرائب، وقد أشارت دفاتر الترابيع إلى أراضى الحطيطة فى القرى التى يوجد بها هذا النوع من الأراضى[4].

وعلــى الرغم من محاولات الدولة اســتمالة العربان وإدخال البعــض منهم فى منظومة الأمــن، وهو ما حدث فعــلاً «العربان المدركين»، وكذلك محاولــة توطينهم من خلال منح التــزام أراض زراعية لهم، أو اســتئجارهم للأراضى الزراعية مــن ملتزميها، إلاَّ أنَّ قطاعًا كبيرًا من العربان كان يعتمد على الســلب والنهب من خلال مهاجمة القرى؛ ويرجع ذلك إلى نظرتهــم إلى العثمانيين والمماليك؛ حيث اعتبروا أنَّهم أحق بحكم مصر وامتلاكها منهم بحكم الفتح العربى لها[5].

وقد شــجَّع ضعف الإدارة العثمانية فى مصر فى نهايات القرن السابع عشر على هجرة البــدو بشــكل كبير من شمال إفريقيا إلى مصر، حيث نــزح الكثير منهم من طرابلس وبرقة واســتقروا فى بعض ولايــات الوجه البحرى، خاصة ولاية البحــيرة وأحدثوا دمارًا بها[6] وكان من بين هذه القبائل بنو وافى، وأبو كريم، ومحارب، والطحيوى، وقد تفرع من هذه القبائل فروعا أخرى[7].

---

(١) دار الوثائق: دفاتر الالتزام: دفتر رقم ١٠٦٤.

(٢) دار الوثائق: دفاتر الترابيع: دفتر ترابيع ولاية البحيرة رقم ٢٢٨٧.

(٣) لانكريه: دراســة فى نظام الضرائب على الأطيان وفى الإدارة الإقليمية فى مصر فى الســنوات الأخيرة من حكم المماليك، جـ ٥، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٣١.

(٤) دار الوثائــق: دفاتــر الترابيع: دفتر ترابيع ولاية المنوفية رقم ٢٢٥٦؛ دفتر ترابيع ولاية الشــرقية رقم ٢٢٦٠؛ دفتر ترابيع ولاية القليوبية رقم ٢٢٦٣؛ دفتر ترابيع ولاية المنوفية رقم ٢٢٨٣؛ دفتر ترابيع ولاية البحيرة رقم ٢٢٨٧.

(٥) جومار: المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٦) إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٧) جومار: المصدر السابق، ص ٢٠٨.

وشـــهد عام ١١٠٣هـ/ ١٦٩١م هجومًا من القبائل المتمركزة فى الشرقية مثل الهجارسة وهلباســـويد على قرية جميزة برغوت[١] واســـتولوا على الغلال والمواشـــى والخيل والجمال الخاصة بدار الأوسبة واستولوا كذلك على مواش وجمال للأهالى، واشتكى قائمقام[٢] الملتزم للقاضى الذى شـــكَّل لجنة لمعاينة المنهوبات، وكان من ضمنها الشونة السلطانية، وانتهوا إلى كتابة كشف بذلك لاستخدامه عند الحاجة[٣].

وفى عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م هاجم مجموعة تقدر بأربعين رجلا من عربان الزهايرة جرن حاكـــم الولاية، وضربوا أحد الحـــراس وأصابوه بجروح، وعقروا ناقة لحاكم الولاية[٤] وهذا يوضح عدم مبالاة هؤلاء حتى بحاكم الولاية فما بالك بالفلاحين.

وتوالـــت الهجمات، ففى عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، هاجم أحمـــد البقرى وأقاربه ناحية صافـــور[٥] وتذكر الوثائق ما نصه «وأوقعوا بها النهب والحرق وأخربوها ظلمًا وعدوانًا». فما كان مـــن ملتزمهـــا إلاَّ أنْ اشـــتكى للقاضى الذى أمر بمعاينة القريـــة «فوجدت دور أهاليها جميعًـــا بغير أبواب»، وتم تخريب طواحينها وهدم دار الأوســـية، وبعض دور الفلاحين، ونهب وحرق جانب كبير من القمح وغيره من المحاصيل التى وصلت جملتها إلى (٢١٢٨) أردبـــا منها ٨٥٠ أردب قمح، ٣٥٠ أردب شـــعير، ٤٢٠ أردب فول، ١٥٠ أردب عدس، ١٦٠ أردب حمص، ٣٠ أردب كتان، ٧٨ أردب برسيم، إلى جانب ١٥٠ أردب حمص من الإنتاج الجديد، وكان من ضمن المنهوبات لمتلزم القرية وأهاليها ٣٠ محراث، ٣ جرافة[٦].

---

(١) سميت بهذا الاســـم فى العصر الفاطمى ووردت فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشـــاد جميزة برغوت، وقد تم تغيير اسمها إلى جميزة بنى عمرو وهو اسمها الذى وردت به فى تاريخ ســـنة ١٢٢٨هـ. وصدر القرار بهذا التغيير فى ١٩ مارس ١٩٣٢م. انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٨٩.

(٢) هو موظف يعينه الملتزم للإشراف على حصة التزامه، ويقوم القائمقام بحفظ حاجيات الملتزم، انظر:
Shaw, S., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1519 – 1798, Princeton, 1962, p. 53.

(٣) صـــلاح هريـــدى: فصول من تاريخ المدن المصرية خلال العصر العثمانى، عين للدراســـات والبحوث الإنســـانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٩١.

(٤) محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، م ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م، انظر: ملحق [٣].

(٥) من القرى القديمة وردت فى قوانين ابن مماتى وفى التحفة من أعمال الشـــرقية، انظر: محمد رمزى: المرجع السابق، قسم ٢، جـ ١، ص ١٩١.

(٦) محكمة الدقهلية: س ١٣، ص ١٩٤،م ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ/ ٢٨ أغسطس ١٦٩٨م. انظر: ملحق [١].

ويبدو اعتياد بدو الزهايرة مهاجمة القرى، حيث قامت مجموعة منهم فى عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م، وهم مدججين بالسلاح، ونهبوا دار أوسية قرية نوسا البحر[١] وتوابعها، وكانت فى التزام اثنين من العسكريين أحدهما أغاتفنكجيان[٢] والآخر كتخدا الجاويشية[٣]. وكان من جملة المنهوبات ٣٢ ثور وفرسين وحصان وغيرها[٤] وهذا يوضح مدى استخفاف البدو حتى بالقرى التى يلتزمها الصفوة العسكرية آنذاك.

وإذا أخذنا نموذجًا آخر للبدو نجد قبيلة الحبايبة الذين تهيأت لهم فرصة لفرض نفوذهم وسيطرتهم عن طريق توليهم الخفارة النيلية «حراسة السفن التى تسافر بين بولاق وكل من دمياط ورشيد»، فتحولوا إلى قراصنة، وتجبروا وطغوا، وأصبحت معظم بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايتهم[٥].

وقد تحالف الحبايبة مع البقرية، وكان الحبايبة يلجأون أحيانًا للبقرية فى حالة ضغط الإدارة عليهم، وقام سويلم بن حبيب بضرب العديد من النواحى ونهبها[٦].

ومن المؤسف أنَّ المماليك كانوا يستعينون – أحيانًا – بالبدو، حيث أرسل أحد البكوات فى عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م إلى عرب الهنادى، فحضروا بجمعهم وأخلاطهم، وانتشروا فى الجهة الغربية من رشيد إلى الجيزة، ينهبون البلاد، ويأكلون الزرع، ويضربون المراكب فى النيل، ويقتلون الناس حتى قتلوا فى يوم واحد من قرية النجيلة[٧] أكثر من ثلاثمائة

(١) من القرى القديمة اسمها الأصلى منية نوسا، ووردت فى تاريخ ١٢٢٨هـ باسم نوسا البحر؛ لأنها واقعة على فرع النيل الشرقى، وتمييزًا لها عن نوسا الغيط الواقعة فى وسط الأراضى الزراعية. انظر: القاموس الجغرافى، السابق، قسم ٢، جـ ١، ص ١٧٨.

(٢) كان أفرادها من حملة البنادق الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم فى فتح مصر، وأسهموا فى توطيد السلطة العثمانية فى الأقاليم بعد ذلك. انظر: عبد الكريم رافق: المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٣) طائفة عسكرية واستخدم أفرادها كرسل لإبلاغ الأوامر والمهمات وكجباة فى الأقاليم. انظر: عبد الكريم رافق: المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠، ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ/ ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م. انظر: ملحق [٢].

(٥) ليلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٦) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٧) لم يرد اسمها فى الكتب القديمة وأول من ذكرها هو ابن إياس، ويبدو أنها كانت من توابع ناحية محلة أحمد ثم فصلت عنها فى تاريخ سنة ١٢٢٨هـ وكانت هذه القرية قاعدة لمركز النجيلة من سنة ١٨٢٦ ثم نقل ديوان المركز إلى كوم حمادة لتوسطها بين قرى القسم الزراعى الواسع. انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، جـ ٢، ص ٣٣٣.

إنسان، وكذلك فعل عرب الشرق والجزيرة بالبر الشرقى، ويعلق الجبرتى قائلاً: «فتعطل السير برًا وبحرًا ولو بالخفارة حتى إنَّ الإنسان يخاف أنْ يذهب من المدينة إلى بولاق أو خارج باب النصر»[1].

ويذكر الجبرتى فى موضع آخر أنَّ الأرياف «قامت على ساق» يقتل بعضهم بعضًا، وينهب بعضهم بعضًا، وكذلك أغارت العربان على الأطراف والنواحى، «وصار قطر مصر من أوله إلى آخره فى قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذى لا يحصى»[2].

ولم ينج حتى الحجاج من هجمات البدو ونهبهم وسلبهم سواءً كانوا رجالاً أو نساءً، وقلَّما تخلو المصادر المعاصرة من ذكر تعديهم على «قافلة الحج»[3].

ولم تسلم الأديرة من هجمات البدو وتعديهم عليها، وكان الرهبان يقومون بواجب الضيافة للعربان، وهم مضطرون لذلك؛ لأنَّهم فى حراستهم، ويمر العربان بالأديرة أثناء تنقلاتهم خاصة بالليل، ويتوقفون عند الأديرة ليتناولوا طعامهم ولكى يستريحوا ويريحوا خيولهم، ويقدم الرهبان الطعام لهم من وراء الجدران، ولا يفتحون لهم الأبواب مطلقًا، حيث ينزلون لهم الطعام من فوق سور الدير بواسطة حبل فى نهايته سلة الخبز والخضار، وهم مضطرون لذلك حتى لا يتعرضوا للنهب والقتل خارج الأديرة على أيديهم[4].

والجدير بالذكر أنَّه حتى العربان الذين احترفوا الزراعة، فإنَّهم لم يتخلوا عن عادتهم القديمة وبخاصة عادة السلب والنهب، فكانوا يستولون عنوة على أجود الأراضى، ويحولون مياه الرى ويقطعون الجسور فى الوقت الملائم لهم غير عابئين بمصالح جيرانهم من الفلاحين، ووصل الأمر بهؤلاء العربان المستفحلين إلى أنَّهم كانوا يسلبون حاصلات القرى المجاورة لهم بدون مبالاة، وذلك كلما قصرت حاصلاتهم عن الوفاء بحاجاتهم[5].

والعربان المزارعون هم الأحسن تسليحًا، ويمتلكون كمية كبيرة من البنادق والطبنجات والمسدسات والسيوف إلخ، وماهرون فى إخفائها، وتعد الحربة من

(١) الجبرتى: المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق، جـ ٥، ص ٩.

(٣) سميرة فهمى على عمر: إمارة الحج فى مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٧٠.

(٤) أندريوسى: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٦، ٦٧.

(٥) إيمان عامر: المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٤.

الأسلحة التى نادرًا ما يتركونها، وهى ليست متوفرة لدى الفلاحين، ومن العادات عند العرب أنْ تكون مسلحًا[1].

وقلَّما يقاتل العربى البدوى إلاَّ وهو يمتطى حصانه، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة، كما يكون فى غالب الأحيان مسلحًا برمح وكمية من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرج حصانه، وفى بعض الأحيان يستعيض عن رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدوا بحصانه، رافعًا يده دون أنْ يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أنْ يثبت سلاحه وأنْ يصوبه كما لو كان راجلاً، وبالرغم من أنَّه مدرب على إلقاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة، فإنَّه من النادر مع ذلك أنْ يتخلى عنها فى المعركة، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمه، ويرمى بها بقوة تاركًا إياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية، وبحركة معاكسة يستعيدها سريعًا إلى وضعها الأول، وحيث إنَّ كفاءته كفارس أكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه فإنَّه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربًا بحصانه الذى تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلتحم فهيا المقاتلون[2].

وحتى تكتمل الصورة نرى أنَّه من الحيدة والموضوعية أنَّ نهب وسلب القرى لم يكن من جانب البدو فقط سواءً المتنقلين أو حتى المزارعين بل هناك العديد من الأمثلة التى تشير لمهاجمة أهالى القرى من الفلاحين لأهالى القرى الأخرى من الفلاحين كذلك، فقد أنهى ملتزم قرية سنجيد[3] بأنَّ أهالى قريتى منشأة الإخوة[4] وبرج النور[5] تعدو على ناحية سنجيد وهم مسلحون ونهبوا الأوسية ودور الفلاحين، من غلال ومواش ونوارج ومحاريث وجراريف وغيرها، وحاول البعض من الأعيان الصلح بين الطرفين[6].

---

(١) جومار: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠٢.

(٢) دى بوا إيميه: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٧٩.

(٣) من القرى القديمة وردت فى قوانين ابن مماتى وفى التحفة من أعمال الدقهلية. انظر: القاموس الجغرافى، المرجع السابق، القسم الثانى، جـ ١، ص ١٧٢.

(٤) من القرى القديمة وردت باسمها الحالى فى تاريخ ١٢٢٨هـ، وهى من أعمال الدقهلية، انظر: القاموس الجغرافى، المرجع السابق، القسم الثانى، جـ ١، ص ١٧٦.

(٥) من القرى القديمة وردت فى تاريخ ١٢٢٨هـ، وتتبع الدقهلية، انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، جـ ١، ص ١٧٠.

(٦) محكمة الدقهلية: س ٧، ص ٢٨٥، م ٧٠٣، ٩ ذو القعدة ١٠٩٢هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٦٥١م.

وقــام أهالى ناحية ديو[١] بالتعدى على ناحية البرامون[٢] وما معها ونهبوا دار الأوســية الخاصــة بالملتزم، ولدى القاضى اعــترف المدعى عليهم بالمنهوبات وأحضروها غير أنَّها لم تكن كاملة، فطالبهم ملتزم الناحية – وكان أغا طائفة مســتحفظان[٣] – بباقى المنهوبات فطلبــوا أنْ يمهلهــم حتى يفتشــوا عنها وإنْ لم يجدوا حلفوا اليمين الشــرعى واتفقوا على ذلــك[٤] وهــذان المثالان ليس حصــرًا ولكن حتى تتضح الصورة وأنَّــه لم يكن البدو فقط من يقومون بالســلب والنهب وإنَّما البعض من أهالى القرى من الفلاحين لا يتورعون عن نهب وســلب قــرى جيرانهم وإنْ لم تكــن هناك مقارنة بين نهب البدو لقــرى الفلاحين ونهب الأخيرين لقرى بعضهم البعض لا من حيث الكم ولا الكيف.

هجمات البدو فى عهد الحملة الفرنسية:

لم يضع وصول الفرنسيين إلى مصر حدًا للنهب والتهديد الذى كان يتعرض له الفلاحون مــن قبل البدو، الذى اســتمر تهديدهم للريف، ممَّا جعل مشــايخ القــرى يطلبون حماية الســلطات الفرنســية، حتى يتمكَّنوا من زراعة أراضيهم[٥] ومن المعلــوم ارتباط البعض من مشــايخ العربان بالفرنســيين وتم تبادل الخطاب بينهم وبين الفرنســيين ومن هؤلاء الشيخ خليل الحوين الذى كان بمثابة الرســول بين الفرنسيين وشيخ عرب المساعيد الذى لم يكن للفرنســيين علاقة به لا بالخير ولا بالشر «Jamais eu de relation avec nous nien en mal ains» ويطلب الفرنســون إعادة الجمال الخاصة بشــيخ الترابيين[٦]، وقد لعب شــيخ

(١) من القرى القديمة وهذا هو اسمها الأصلى وفى العهد العثمانى أضيف إليها كلمة الوسطى لإظهار اسمها، ووردت باسمها الحالى فى تاريخ ١٢٢٨هـ، انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، جـ ١، ص ١٩٠.

(٢) من القرى القديمة وهذا هو اسمها الرومى Baramoun، وهى من أعمال القليوبية. انظر: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، جـ ١، ص ٢١٣.

(٣) كان أفراد هذه الطائفة انكشارية مشاة وأتت إلى مصر مع السلطان سليم الأول وعرفت بطائفة السلطان. وقد أشاد أحد الرحالة بهذه الطائفة وتسليحهم الجيد فى القرن السابع عشر، انظر: De Monconys, Voyage en Égypte, IFAO, Le Caire, 1973, p. 152, 1646 – 1647.

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٨، ص ٨٦، م ٢٠٠، ١٤ شوال ١١٢٠هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٧٠٨م.

(٥) على بركات: رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٦٠.

(٦) محافظ الحملة الفرنسية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة ٨، ملف ١٠، وثيقة رقم B6/ 139، ديسمبر ١٨٠٠، انظر: ملحق [٦].

الترابين دور الوساطة بين القبائل البدوية والفرنسيين ورتَّب لإعادة بعض البضائع التى نهبها العربان، ويبدو أنَّه ملَّ من هذا الأمر وأعلن أنَّه سوف يطرد أى رسول ولن يستقبل أى شكاوى بعد ذلك «et an non cé que si je recois encore deplaintes je les cha sserai» [1] وليس معنى ذلك أنَّنا نقصد التقليل من وطنية هؤلاء، ولكن – كما أشرنا – كان العربان يعتبرون العثمانيين ومن قبلهم المماليك مغتصبين لحكم مصر، وأنَّهم الأحق بحكمها بحكم الفتح العربى لها.

ويرصد الجبرتى الذى يحتل مكانة فذة كأهم مؤرخ لتلك الفترة؛ لمعاصرته للحملة بل وقربه من الأحداث ومعرفته الشخصية بالكثير من أعضاء الدواوين التى أنشأها الفرنسيون، فيذكر أنَّ وقوف العرب وقطاع الطرق بجميع الجهات القبلية، والبحرية، والشرقية، والغربية، والمنوفية، والقليوبية، والدقهلية، وسائر النواحى «فمنعوا السبيل ولو بالخفارة، وقطعوا طريق السفَّار، ونهبوا المارين من أبناء السبيل والتجار، وتسلطوا على القرى والفلاحين، وأهل الحرف بالعرى، والخطف للمتاع والمواشي من البقر والغنم والجمال والحمير وإفساد المزارع ورعيها، حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهائمهم إلى خارج القرية للمرعى أو للسقى؛ لترصد العرب ذلك» والأكثر من ذلك يذكر الجبرتى تعدى أهالى القرى على بعضهم البعض، واستعانتهم بالعربان «وطمعت العربان فى أهل البلد وطالبوهم بالثارات والعوايد القديمة الكاذبة»[2].

ولم يقتصر نهب البدو على أهالى القرى فحسب بل كثيرًا ما تعرَّض الفرنسيون لنهب العربان، حيث يذكر «جومار» أنَّهم كانوا يختبئون فى النهار بين أكداس العليق «العلف» ويخرجون بالليل للسرقة «وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هذه الأكوام، ومعهم الأسلحة التى أخذوها» بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رءوس الجنود، وسرقوا السيوف وهى إلى جانب حقائب الضباط[3] وبالطبع لم يكن هذا من دافع الوطنية ولكنهم كانوا يمارسون عادة متأصلة فيهم ولا يفرقون فى ذلك بين مصرى أو فرنسى.

(١) الجبرتى: المصدر السابق، محفظة ٨، ملف ٩، وثيقة رقم B6/ 134.

(٢) نفس المصدر السابق، جـ ٥، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٣) دى بوا إيميه: المصدر السابق، جـ ٢، ص٢٨١.

موقف الفلاحين من هجمات البدو:

علـى الرغم من أنَّ قانون نامه مصر قد أولى الفلاح اهتمامًا كبيرًا، ودعا إلى عدم تحميله أكثر من طاقته، وألاَّ يوقع عليه الجزاء إلاَّ بعد محاكمته أمام القاضى، وعدم التعدى عليه أو ظلمه إلاَّ أنَّ هذا لم يكن سـوى مجرد كلام نظرى أو إنْ شـئت فقل طبق – إذا كان قد حـدث – فى فترة قوة الدولة العثمانية، ولكن بضعف الدولة العثمانية وعجزها – إلى حد ما – عن ضبط الأمور وإقرارها بدأ الفلاح يتعرض للكثير من الظلم وعلى رأس هذا الظلم – كما رأينا – هجمات البدو – ومن الطبيعى ألاَّ يقف الفلاح موقفًا سلبيًا من هذه الهجمات، ولكن لم يكن الفلاح يملك نفس سلاح العربان، فقد رأينا تنوع هذه الأسلحة وتعددها لدى هؤلاء، ولذلك أقام الفلاحون فى بعض القرى أبراجًا من الطين يعلوها سطح مزود بمتراس، ويزرع هؤلاء وعيونهم يقظة وهم لا يتركون سـلاحهم مطلقًـا، وما أنْ يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا بسرعة حيواناتهم إلى أقرب هذه الأبراج، ويتسلقونه على درجات صغيرة فى جسـم البرج الخارجى، ومن سـطح هذا البرج يدافعون عن ممتلكاتهم ويبعدون البدو عنها بطلقات البنادق.

لقد ترك الفلاح – أحيانًا – فأسه ومحراثه وحمل السلاح فى وجه الظلم الواقع عليه[1] سـواء من الإدارة التى أثقلت كاهله بكثرة الضرائب وتعددها وعدم عدالتها أو من هجمات البدو التى كانت لا تنقطع على الريف.

وأحيانًا يطلب الفلاحون المساعدة من السلطان العثمانى رأسًا، حيث أرسلوا إليه رسولاً يحمل شكايتهم من أذى وفساد هؤلاء العربان، وتقصير السلطات الحاكمة فى القضاء على فسادهم[2].

وهكذا حاول الفلاحون مواجهة هذه الهجمات إمَّا بالتحصُّن داخل أبراج طينية أشـبه بالقـلاع تحميهم وحيواناتهم من الهجمات، أو حمل السـلاح فى وجه هؤلاء العربان وإذا ضاق بهم الحال كانوا يلجأون إلى الإدارة وعلى رأسها السلطان لحمايتهم من هذه الهجمات.

---

(١) محمد أنور توفيق أبو علم: السخرة فى الزراعة وأثرها فى الفلاح المصرى فى القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٠.

(٢) ليلى عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٤٤.

موقف الإدارة (العثمانيين والمماليك) من هجمات البدو:

لم تقف الإدارة مكتوفة الأيدى أمام تلك الهجمات بل كان لها – فى غالب الأحيان – موقفًا إيجابيًا منها نقلته لنا المصادر المعاصرة، والإدارة هنا تشمل العثمانيين والمماليك معًا؛ لأنَّه كما نعلم بعد الفتح العثمانى أسند العثمانيون إلى المماليك – على الرغم من عدم الثقة بينهما – حكم الأقاليم لدراية المماليك وخبرتهم الطويلة فى ذلك، وخير دليل على ذلك تعيين أحد الأمراء المماليك كأول باشا – والى – على مصر وهو خايربك، ويتوافق تعيين خايربك مع السياسة التقليدية للدولة العثمانية فى الاستعانة بالحكام المحليين الموالين لها، ثم توطيد السلطة العثمانية بالتدريج بعد ذلك[1].

وإذا بدأنا بموقف العثمانيين نجد أن الباشوات لم يألوا جهدًا فى التصدى لهذه الهجمات والقضاء عليها «وإنْ لم تنجح فى ذلك كل النجاح» حيث كانت الإدارة – السلطات الحاكمة – ترسل من حين إلى آخر بعض الفرق لمهاجمتهم فى محل إقامتهم أو مراعيهم، ولكى يتقى العربان ضربات تلك الفرق ولكيلا يؤخذوا على غرة، كانوا يرسلون إلى بولاق بعض الجواسيس يتخفون فى زى الفلاحين، وكان هؤلاء يتعرفون إلى نوع وحجم الفرق التى تخرج من القاهرة للزحف عليهم، ويذهب هؤلاء على الفور إلى قبائلهم وعلى الفور يرفع البدو خيامهم ويرسلون النساء والأطفال إلى أعماق الصحراء، ويتوغلون داخل الصحراء لمسافة طويلة حتى ينهكوا الفرق الموجهة إليهم، عندئذ تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا إنْ كانوا سيهاجمون تلك الفرق ومتى، أم سيكتفون بصد الهجمات فقط، ويقيم البدو نقاط استطلاع فوق المرتفعات ويضعون عماماتهم فوق الرماح فإذا رأوا أنَّ من الأفضل الهجوم على الفرق يتَّجهون ناحيتها أمَّا إذا كان العكس يرجعون إلى المخيم[2]، وكان الباشا يعقد «جمعية» – اجتماعًا – يحضره كبار الأمراء من أجل وضع حد لهجمات العربان وفى الغالب كان السؤال الذى يطرحه الباشا هو «من ينزل للعرب» وساعتها ينهض أحد الأمراء ويطلب ما يحتاجه من قوات وعتاد ويعطيه الباشا «تمسك بذلك» أى أمرًا بذلك ويلبسه قفطانًا كالعادة[3].

---

(١) فيصل عبد الله الكندرى: جان بردى الغزالى وموقفه من العثمانيين، مجلة المؤرخ المصرى، العدد ١٧، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٤٣.

(٢) أندريوسى: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٧٥.

(٣) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٤٢.

ففى عهد أحمد باشا الحافظ[1] مثلاً أرسل قوة «لاستئصال المفسدين من عربان غزالة»[2] وقتل منهم خلقًا كثيرًا، ونهب العسكر أموالهم ونساءهم وأولادهم، ووصل الأمر للبيع كرقيق «البنت بدينار والولد بدينارين»[3].

وأرسلت الإدارة عدة حملات عسكرية لصد عبد الله بن وافى فى عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م – ١٧٠٠م، وقد نتج عن ذلك طرد عبد الله بن وافى وقبيلته من البحيرة إلى خارج مصر[4].

وأرسلت الإدارة عدة حملات كذلك للقضاء على بدو الحبايبة، وطاردوهم إلى أنْ فرّوا إلى الصحراء الشرقية، وأمر الباشا بمنعهم تمامًا من النزول إلى الريف وتشديد الحراسة من أجل ذلك حتى «صارت الأقاليم السبعة فى أمن وأمان»[5].

هذه أمثلة للحملات التى كانت ترسلها الإدارة لصد هجمات البدو، وتلجأ الإدارة أحيانًا إلى ضرب العربان بالعربان، فعندما كانت الإدارة تضيّق الخناق على البدو فى الدلتا كانوا يفرون إلى الصعيد وهنا كانت الإدارة تغرى بهم عربان الهوارة الذين «احتاطوا بهم ونهبوهم وأخذوا منهم جملة كبيرة من الجمال وغيرها» وتابعتهم خيل الهوارة ثانية وأخذوا منهم ألفًا وسبعمائة جمل بأحمالها حتى نزلوا الفيوم وكلَّما نزلوا بلدًا قاتلهم أهلها حتى وصلت طائفة منهم إلى الجيزة، فجرد لهم الباشا قوة عسكرية خلفهم حتى فروا إلى المنوفية[6].

وفى حالة عقد القبائل اتفاقًا مع الإدارة لضعفها أو لإنهاك قوتها، فإنَّ القبائل لا تحرص على احترام هذا الاتفاق، حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة هاجموا البلاد مرة أخرى، وإذا ما تابعهم العسكر كانوا يلوذون بالصحارى التى يعرفونها جيدًا، كما أنَّ لهم قدرة كبيرة

(١) مدة ولايته من ٢٦ رمضان ٩٩٩هـ – رمضان ١٠٠٣هـ/ ١٢ يوليو ١٥٩١م/ مايو ١٥٩٥م. انظر: أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٢) وكانوا يعرفون كذلك بعربان خبيرى، وكانوا يقيمون فى ضواحى الجيزة والمناطق القاحلة بجوار الأهرامات. انظر: جراتيان لوبير: جولة فى إقليم المريوطية، وصف مصر، الترجمة العربية، ترجمة: زهير الشايب، جـ ٢، دار الشايب للنشر، القاهرة ١٩٧٨م، ص ص ٤٠، ٤١.

(٣) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٤) رضا أسعد السيد: النشاط الاقتصادى لمشايخ قرى الدلتا فى العصر العثمانى، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة ٢٠٠٨، ص ٧١.

(٥) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

(٦) الجبرتى: المصدر السابق، جـ ١، ص ص ١٧١، ١٧٢.

علـى تحمل العطش لوقت طويل وتحمل المتاعب، فالصحراء هى حصن منيع لهم يصعب اقتحامه ويلوذون به فى حالة تعرضهم لضغط من الإدارة وقواتها العسكرية[1].

وعلى ذلك فالإدارة العثمانية ممثلة فى الباشا والفرق العسكرية كانت لا تألوا جهدًا فى أحيان كثيرة فى التصدى لهجمات البدو.

وإذا انتقلنـا للفريق الآخر الذى يعد جزءًا مهمًا من الإدارة وهو المماليك نجد أنَّهم كانوا يشجعون – أحيانًا – تلك الهجمات؛ نظرًا للعداء التقليدى بينهم وبين العثمانيين، حتى يعيثوا فى الريف فسادًا نكاية فى العثمانيين وإظهارها بمظهر الضعف والعجز عن السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد[2]، ولكن عندما يتولى الأمير كشـوفية ولاية من الولايات فهنا الأمر يختلف فهو «يزود عن بلاده»، فعندما نزلت جماعة من العربان بكرداسـة «فكبسهم ذو الفقار بك كاشف الجيزة وقتل منهم أربعة وسبعين رجلاً وطلع برءوسهم إلى الديوان» ثم وصل خبر نزول بنى وافى بالطرانة فقام قائمقام البحيرة بقتالهم وقتل منهم الكثير، وأخذ الأموال والمواشـى، ولمَّا علم بقية العربان ما حصـل لبنى وافى «ضاقت بهم الأرض، ففروا إلى الواحات»[3].

وأرسـل إبراهيم بك القازدغلى ثلاثة صناجق لضرب أولاد حبيب، وعندما وصلهم الخبر وزعوا مواشـيهم وحريمهم فى البلاد، وركبـوا خيولهم،ولمَّا وصلت «التجريدة» وهجموا على موطن الحبايبة فلم يجدوا منهم أحدًا لأنَّهم لمَّا رأوا كثيرة التجريدة ذهبوا إلى الصحـراء فأرسـل إبراهيم بك إلى قائد التجريدة بأنْ ينـادى فى البلاد بألاَّ يأويهم أحـد ولا ينزلون الريف، ونجح فـى القبض على مجموعة كانت فى طريقها للحبايبة بالمؤن والذخيرة[4].

وخـرج إبراهيم بك أبو شـنب على رأس قوة عسـكرية كبيرة بها عـدد من الصناجق والأغوات «وجميع عسـكر مصر» وكان ذلك شـرق القاهرة، واستمرت الحرب بين الفريقين من الصباح إلى قبيل العصر، وقتل من العرب نحو ألف وأسر نحو خمسمائة[5].

---

(١) دى بوا إيميه: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٦٤.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) الجبرتى: المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧١.

(٤) نفس المصدر، جـ ٢، ص ٥٤٦.

(٥) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص ١٨٣.

وعندما تولى محمد بك يوسف الجزار كشوفية البحيرة حارب عرب الهنادى وقتل منهم كثيرًا، وطردهم عن الوادى، ونهب نجعهم، وأخذ من أموالهم الكثير من الغنم خمسة آلاف ومن الجمال ثلاثة آلاف، وأحل بنى عونه مكانهم[١].

وعندما عاد الحبايبة لسابق عهدهم من السلب والنهب كمَّن لهم المماليك وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وعلى حد قول الدمرداشى «قشوا من العرب ناس لها صورة» وفى المقابل كمَّن الحبايبة للمماليك وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأرسل الحبايبة وأحضروا تربى «وأرمى الغز المقتولين فوق بعض عرايا فى مقطع الجسر وجرفوا عليهم وساوهم بالأرض»[٢].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد أعاد المماليك ترتيب صفوفهم، وطردوا الحبايبة وأمر الصنجق «أصحاب الأدراك» فى الأقاليم بألاَّ يؤووا الحبايبة وأنَّ كل من «آوى أو ضيَّف حبيب وجماعته يستاهل ما يجرى عليه» كما نقل فلاحى القرية المجاورة للحبايبة وبنى لهم كفرًا جديدًا وبنى له سورًا من أنقاض بيوت الحبايبة وجرَّف دورهم[٣].

وظلَّ بدو الحبايبة هائمين على وجوههم وعلى حد قول الدمرداشى «لم يرض أحد استقبالهم» فساروا إلى أرض غزة وأقاموا بها مدة ثم استسمحوا إبراهيم بك أبو شنب فأقطعهم مائة فدان وأنزلهم فى إحدى قرى بنى سويف[٤].

واستمرت الحرب سجالاً بين المماليك والبدو، وكان إذا وقع أحد البدو فى يد المماليك كانوا يقتلونه من ذلك ما حدث من حسن بك كاشف الطرانة[٥] الذى ألقى القبض على أحد مشايخ البدو فى كشوفيته وأمر بإغراقه فى النيل ثم أعطاه لقبيلته فدفنوه[٦].

ونجح على بك الكبير[٧] فى إنزال هزيمة كبيرة بالبدو فى البحيرة عام ١٧٦٨م، لكنهم عادوا وهددوا طرق المواصلات بين القاهرة والدلتا ووصل الأمر بسويلم شيخ بدو البحيرة إلى

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٩٦.

(٢) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ص ١١٠، ١١١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٢١.

(٥) كانت الطرانة إحدى ولايات مصر فى تلك الفترة. انظر: محكمة جامع الحاكم: س ٥٧٣، ص ٤٩٠، ١٢٧٥هـ، ٢ ربيع الأول ١١٢١هـ/ ١٢ مايو ١٧٠٩م.

(٦) أحمد الدمرداشى: المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٧) كان على بك الكبير مملوكًا صغيرًا لإبراهيم كتخدا القازدغلى، ثم ظهر أمره وأصبح شيخًا للبلد، انظر: Livingston, J., The Rise of Ali Bey Alkabir, London, 1976, p. 283.

أنْ أقدم على قتل على بك «حاكم البحيرة» وهو تحدٍ كبير لم يكن على بك الكبير ليسكت عليه، ولذلك أرسل على بك الكبير أحد كبار أمرائه وهو إسماعيل بك بحملة كبيرة إلى البحيرة واستمرت الحرب أيامًا دون نتيجة حاسمة إلى أنْ نجح مماليك إسماعيل بك فى إلقاء القبض على سويلم فى خيمة بعيدًا عن ميدان المعركة وقطعوا رأسه ممَّا أثار الرعب فى نفوس البدو الذين سرعان ما انهزموا[1].

وهكذا لم يأل المماليك جهدًا فى مواجهة البدو خاصة إذا كانت هجمات الأخيرين تهدد مصالحهم بشكل مباشر كأن يهاجم البدو التزامات تابعة لهم، أو يهاجموا قرى فى كشوفياتهم، كما كانوا يلجأون لمحالفتهم أحيانًا وهذا ما كان يتفق مع روح العصر الذى كانت الصراعات العسكرية بشكل عام أحد أهم سماته ممَّا كان له آثاره الوخيمة فى المجتمع.

الآثار الاقتصادية والاجتماعية لهجمات البدو:

كان لهجمات البدو آثار اقتصادية كبيرة، حيث سيطروا على الاقتصاد الريفى فى حالات كثيرة، خاصة فى فترات ضعف الإدارة، فإنَّهم إذا نزلوا قرية جعلوها قاعًا صفصفًا لا حياة لقاطنيها الذين يضطرون للتسحب من قراهم تاركين ورائهم آلاف الأفدنة بدون زراعة ممَّا يؤدى فى النهاية إلى تقلص الإنتاج[2].

وثمة أثر مهم لهجمات البدو تمثل فى تحطيم الجسور والسدود، ممَّا يؤدى لهبوط منسوب المياه، وبالتالى تشرق بعض الأراضى الزراعية التى لا تصلها المياه، وهذا يؤدى بدوره لقلة المساحة المزروعة ومن ثم الإنتاج، وكما نعلم ترتفع أسعار المواد الغذائية؛ لأنَّه كما نعلم هناك ارتباط كبير بين الكميات المعروضة والسعر؛ فإذا زاد العرض قل السعر والعكس. ويؤدى ذلك بالطبع أو على الأقل يسهم فى حدوث أزمات اقتصادية يعانى منها المجتمع فى الريف والمدينة على السواء.

وإذا انتقلنا لأثر آخر لا يقل أهمية عن ذلك وهو أثر نهب البدو للثروة الحيوانية كالثيران والأبقار والخيول والحمير، وكلها قوى محركة وأدوات إنتاج يستفاد منها فى العملية الزراعية من حرث للأرض ورى لها كقوى محركة للسواقى وغيرها وكذلك كقوى

(١) دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة وتعليق: عبد الوهاب بكر، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٢٣.

(٢) رضا أسعد السيد: المرجع السابق، ص ٢٨٧.

محركة للنوارج التى تقوم بدرس المحصول آنذاك وهذا كله له عواقب وخيمة على الاقتصاد الزراعى فى الريف ولاشك فى انتقال آثاره بدورها إلى المدينة وكما مرَّ بنا فقد كانت بعض تلك الهجمات تفقد فيها القرية المئات من الحيوانات التى هى أساس العملية الإنتاجية[١].

وجانب آخر على قدر كبير من الأهمية لأثر تلك الهجمات يتمثل فى نهب مخزون الحبوب، حيث كان البدو يعمدون إلى نهب كميات الحبوب، وقد بلغت كمية تلك المنهوبات أكثر من ألفى أردب فى إحدى الهجمات من أنواع الحبوب المختلفة[٢] وهذا له تأثيره الكبير على الإنسان بل والحيوان ليس لمدة عام واحد؛ ولكن يمتد لعام آخر على الأقل؛ لأنَّ من جملة المنهوبات البذور، ممَّا يعوق العملية الإنتاجية، وقد يؤدى لبوار مساحات من الأراضى الزراعية لندرة البذور أو حتى انعدامها.

ولم يقتصر أثر تلك الهجمات على القوى المحركة كالحيوانات بأنواعها أو الحبوب الغذائية أو البذور بل الأمر تعدى ذلك إلى أهم عنصر من عناصر الإنتاج وهو الإنسان نفسه، فقد تمخض عن بعض تلك الهجمات إصابة بعض الأفراد من الحرَّاس «الخفراء»[٣] أو موت البعض من الأهالى[٤] وكذلك الحيوانات[٥] وبالتالى لم يستفيدوا هم كذلك من تلك الحيوانات.

وقد تعدى أثر تلك الهجمات – أحيانًا – كل ما سبق وهو الاستيلاء على الأراضى الزراعية نفسها وهى أهم وسائل الإنتاج على الإطلاق، حتى يدعى العربان – أحيانًا – أنَّ النيل قد أكل جزءًا من أرضهم – بفعل النحت والإرساب – وأنَّ عليهم أنْ يعوضوا هذا الجزء من الشاطئ الآخر من النهر، ومرة أخرى بادعاء أنَّ الأرض كانت فى حوزة أجدادهم لأجيال مضت، وإنْ لم يجدوا ذريعة تساعدهم على ذلك فإنَّهم يستولون على الأرض بقوة السلاح[٦].

والأكثر من ذلك أنَّهم كثيرًا ما يستولون على الأراضى الزراعية ويستفيدون بالتالى من إنتاجها ولكن لا يدفعون ما على تلك الأراضى من ضرائب وإنْ لم تصل قوة عسكرية تفرض عليهم دفع الضرائب فلن يدفعوها ويتحملها الفلاحون الذين اغتصبت أراضيهم[٧].

---

(١) انظر: ملحق [٢].

(٢) انظر: ملحق [١].

(٣) انظر: ملحق [٣].

(٤) محكمة الدقهلية: س ١٨، ص ١٥٥، م ٣٨٢، ١٢ جمادى الآخرة ١١٢١هـ/ ١٩ أغسطس ١٧٠٩م.

(٥) المصدر نفسه: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، م ٣٤٠، ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م.

(٦) جومار: المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٨.

(٧) لانكريه: المصدر السابق، جـ ٥، ص ٣٥.

ويصل الأمر بالعربان إلى الاستيلاء على محصول القرى المجاورة لهم إذا كان المحصول الـذى حصدوه من أراضيهـم لا يكفى لمؤنتهم، وذلك بدون مراعـاة لأى عرف أو قاعدة، وإنْ كانـوا يتعهـدون فى مقابل ذلك بتقديم نوع من الحمايـة لهذه القرى، وهذه الحماية غير ذات قيمة فى الغالب؛ لأنَّ تلك القرى تتعرض للسلب والنهب بالتبادل على يد تلك القبائل المتشاحنة[1].

لقد أدت تلك الهجمات إلى إشـاعة حالة من عدم الأمن حتى فى الأسـواق التى كانت تقام فى مدن الدلتا وقراها، فكسـدت تلك الأسـواق، وامتنع الفلاحون عن الذهاب إليها لخشيتهم على أنفسهم وأموالهم[2].

وفـى بعض الأحيان يسـتأجر العربان قطعة مـن الأرض فى قرية ما من قرى الفلاحين وينصبون خيامهم فيها، وإذا ما شـعروا بأنَّ هذه المنطقة مناسـبة لهم يسـتقرون فيها، ثم يساومون الفلاحين على ثمن المكان، وذلك بعد أنْ تكون خيولهم وجمالهم قد أكلت بالفعل جزءًا كبيرًا من الزراعة، ويكون الثمن المعروض لا يساوى عُشر قيمة الأرض، ولم يكن أمام الفـلاح إلاَّ أنْ يقبل، وقد تحولت قرى بأكملها إلى مخيمات للعربان، وأدى ذلك إلى تبوير أراضٍ كثيرة[3].

ونتج عن ذلك كله تسحب الفلاحين من القرى التى تقع على أطراف الدلتا إلى الداخل من ناحية، والتسحب إلى المدن الكبرى من ناحية أخرى، وأدى ذلك إلى خلو بعض القرى من سـكانها الذيـن هربوا لعلهم يجدون مكانًا أكثر أمنًا، وأحـدث ذلك تغيرًا ديموجرافيًا فى المجتمع المصرى مازالت آثاره ماثلة إلى اليوم، إذ تعود جذور نسبة ليست بالقليلة من سـكان القاهرة نفسـها إلى أصول ريفية نزحت إليها منذ سـنوات ضاربة فى القدم. وكتب على ريف الدلتا أنْ يظل لفترة تحت وطأة تلك الهجمات إلى أنْ قامت حكومة مركزية قوية على يد محمد على ضربت على يد هؤلاء البدو العابثين بيد من حديد وقامت بتوطين قطاع كبير منهم وأصبحوا – فى غالب الأحيان – أداة طيعة فى يد الحكومة.

❑❑❑

(١) جيرار: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٩.

(٢) نفس المصدر، جـ ٤، ص ٢٣٣.

(٣) جومار: المصدر السابق، جـ ٢، ص ص ٢١٢، ٢١٣.

الخاتمة

تعد دراسة هجمات البدو فى ريف الدلتا فى العصر العثمانى على جانب كبير من الأهمية، حيث انتشرت القبائل العربية المرتحلة والمستقرة، وظلَّ النظام القبلى متأصلاً لدى البدو منذ هجراتهم الأولى إلى مصر وحتى العصر العثمانى الذى شهد وجود العديد من القبائل فى الدلتا يضرب بعضها بجذوره فى أعماق التاريخ، ونزحت بعض القبائل إلى الدلتا خلال ذلك العصر.

ولم ترحب كل القبائل بالفتح العثمانى، بل وقف بعضها إلى جانب السلطان طومان باى، وكافأ العثمانيون الفريق الذى وقف بجانبهم عن طريق إقطاعهم مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية أملا فى استقطابهم. ولكن لم ينس البدو طبيعة السلب والنهب المتأصلة فيهم، والتى كانوا يرون فيها ترضية لهم؛ لأنَّهم كانوا يعتبرون أنَّهم الأحق بحكم البلاد من العثمانيين والمماليك.

وحاولت الإدارة وضع حد لهذه الهجمات فجردت لها العديد من الحملات بقيادة كبار الأمراء من الصناجق والكشاف، وكانت الكثير من تلك الحملات تؤتى ثمارها وتضع حدًّا لهذه الهجمات «مؤقتًا» إلى أنْ يعود البدو إلى سابق عهدهم من السلب والنهب، وتوجه الدولة الحملات لصدها، وهكذا طيلة العصر العثمانى وحتى أيام الحملة الفرنسية تعرض الريف لهجمات البدو، ممَّا دفع الفلاحين لطلب الحماية من السلطات الفرنسية التى تعرضت هى الأخرى للكثير من تلك الهجمات.

وقد وقف الفلاحون لصد تلك الهجمات أحيانا بالتحصن داخل أبراج أشبه بالحصون؛ لتحميهم وتحمى حيواناتهم، أو اللجوء إلى الإدارة وعلى رأسها السلطان لحمايتهم، وإنْ لم تجد تلك الوسائل يستحب أعداد كبيرة من الريف وهذا يؤثر بشكل كبير على الإنتاج الزراعى.

وكان لنهب الثروة الحيوانية آثاره السيئة فى الاقتصاد الريفى الذى يؤثر بدوره على المدينة، ونتج عن تلك الهجمات نهب الحبوب وهذا النهب تتعدى آثاره لعام آخر، حيث تنهب البذور ممَّا يؤدى إلى ندرتها أو حتى انعدامها ممَّا يؤدى إلى تبوير مساحات من الأراضى الزراعية.

وقــد تعدى أثر تلــك الهجمات النواحى الاقتصادية إلى الإنســان وهو أســاس العملية الإنتاجية؛ حيث نتج عن بعض تلك الهجمات مقتل أعداد من الســكان، والأكثر من ذلك تعدت بعض تلك الهجمات كل ما ســبق إلى الاســتيلاء على الأراضى الزراعية نفسها بقوة الســلاح، خاصة فى ظلّ ضعف الإدارة وانهماك قطاع من أفرادها فى الصراعات العسكرية التى كانت سمة من أهم سمات ذلك العصر.

وفــى النهاية أدت تلك الهجمات إلى خلق حالة من عدم الاســتقرار فى الريف نتيجة هجر الفلاحين بل وأعيان الريف قراهم إلى مناطق أكثر أمنا، فأدى ذلك بدوره إلى انخفاض عدد سكان الكثير من القرى خاصة المجاورة للبدو حتى هجرت بعضها تمامًا.

❑❑❑

ملحق «١»

نهب ناحية صافور بالدقهلية

«بموجب البيورلدى الشـريف الوارد من الوزير حسـين باشـا بموجبه أنَّ الأمير عثمان وشـريكه إسماعيل جلبى ملتزمى ناحية صافور بالولاية بأنَّ أحمد بن نجم البقرى وأقاربه وأهـالى النواحى الآتى ذكرها تعدوا على ناحية صافور المذكورة وأوقعوا بها النهب والحرق وأخربوهـا ظلمًـا وعدوانًا... وطلب من مولانا أفندى الكشـف علـى الناحية فوجدت دور أهاليها جميعًا بغير أبواب وكشف على أربعة عشر طاحونًا بها فلم يوجد بها عدة ولا آلة ولا أحجار وأخشاب ووجدت متهدمة البنا وبها أثر الحريق وكذلك ببعض دور الفلاحين، وكشف على دار الأوسية فوجدت متهدمة البنا ووجدت شونة التبن التى بداخلها محترقة والنار تشتعل بحيطانها وببقية التبن الذى كان بها، ووجدت طوالة البهايم محترقة كذلك وكشـف على ثمانية عشـر حاصلاً فوجدت جميعها بغير أبواب ووجد ببعضها جانب من القمح محترق وجانب من البرسـيم محترق وجانب من الجلبان كذلك وكشـف على قاعة كبـيرة فلـم يوجد بها باب ووجد بها أثر حريق كتـان، ذكر الأمير عثمان المذكور أنه كان بها ماية وخمسـون شـدة كتان من كتان العام الماضى وأنه كان بدار الأوسية المذكورة غرفة ممتلاة بالحمص ولم يوجد بها شـىء وكشـف على جرن الناحية فوجد به أثر حريق من الناحية القبلية والجهة الشـرقية والغربية ووجد به رماد التبن والغلال المحترقة وكشـف على السـاقية المعدة لشـرب الآدميين والدواب فلم يوجد بها أخشاب ولا أتراس ولا جايزة ولا غير ذلك من العدة وأرسل الأمير المتسلم إلى النواحى المجاورة للناحية لاستخبارهم عن ذلـك فلم يحضر منهم أحد وحين وصل الأمير عثمان إلى ناحية مناصافور المجاورة لناحية صافـور للمبيت بها وجد الأمير المذكور جانبًا من أخشـاب ملقاة بدار الأوسـية بها، ذكر الأمير عثمان أنها من جملة أخشـاب الناحية المنهوبة، وكشـف فوجد أنها مشـتملة على أخشاب نورج منكسرة وأخشاب سقف ووجد بها خشبة محترقة.

❑❑❑

منهوبات دار الأوسية

جملة غلال الأوسية زراعة العام الماضى:
٢١٢٨ أردبا
٨٥٠ أردب قمح
٤٢٠ أردب فول
٣٥٠ أردب شعير
١٥٠ أردب عدس
١٦٠ أردب حمص
٣٠ أردب كتان
٧٨ أردب برسيم
١٥٠ أردب حمص زراعة سنة تاريخه
وللملتزم وأهالى الناحية
٣٠ محراثًا، ٣ جرافات»
المصدر: محكمة الدقهلية، س ١٣، ص ١٩٤، م ٣١٠، ٢٠ صفر ١١١٠هـ/ ٢٨ أغسطس ١٦٩٨م.

ملحوظات:

تدخل الباشا رأسًا فى قضية تتعلق بنهب القرى.
نهب كل بيوت الناحية.
نهب الطواحين وهدمها وإحراقها.
نهب دار الأوسية وهدمها وإحراقها.
حرق القمح والبرسيم والجلبان والكتان.
نهب الساقية المعدة لسقى الإنسان والحيوان.
توضح الوثيقة تعرض ممتلكات الأمراء لاعتداءات البدو، فما بالك بالفلاحين!

❑❑❑

ملحق «٢»

نهب بدو الزهايرة لدار أوسية ناحية نوسا البحر وتوابعها بولاية الدقهلية

«حضر مندوب الأمير شـاهين قايم مقام ناحية نوسا البحر وما معها التزام الأمير محمد أغا تفكجيان وملتزم الناحية المذكورة بحق الربع والسدس شركة الأمير سليمان أغا كتخدا الجاويشية بحق الباقى وطلب من مولانا أفندى أن يعين شاهدين يتوجهان إلى ناحية نوسا المذكـورة لضبـط واقعة تعدى جماعة من عربان زهير ومنهم أولاد أبى النصر وأبو الخير من عربان الزهايرة ومعهم الزينى على... ومعهم خيالة ومشاة وبالآلات والسلاح والبندق وتعدوا على دار الأوسـية بناحية نوسـا الساحل... وتوصلوا من باب دار الشـاد ونهبوا ٣٢ ثورًا مختلفة الشـباه وفرسين وحصانًا وجملين وحمارًا وكسروا باب دار الشاد المذكورة وخرجوا منـه بالبهايم المذكورة وكتب ذلك ضبطًا للواقع ليراجع عند مسـيس الاحتياج جرى ذلك وحرر فى تاسع جمادى الآخرة سنة عشرين ومائة وألف».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ١٩، ص ٨٩، م ١٧٠.

التاريخ: ٩ جمادى الآخرة ١١٢٠هـ/ ٢٦ أغسطس ١٧٠٨م.

ملاحظات:

– نهب دار أوسية قرية نوسا البحر وتوابعها رغم تبعيتها لاثنين من الملتزمين العسكريين أحدهما أغا تفنكجيان والثانى كتخدا الجاويشية.

– توضح الوثيقة قوة بدو الزهايرة وتسليحهم الجيد.

– تعدد المنهوبات مما يدل على ثراء ملتزمى الناحية.

– تسجيل حجة شرعية ضبطًا للواقع.

❑❑❑

ملحق «٣»

مهاجمة البدو لجرن حاكم ولاية الدقهلية والاعتداء على حراسه

«حضر الأمير أحمد أغا كاشف ولاية الدقهلية حالاً وعرف مولانا أفندى أنه فى الليلة المسفر صباحها عن يوم الأربعاء من تاريخه أدناه حضر جماعة خيالة من عربان طايفة الزهايرة بالولاية مقدار أربعين رجلاً نصف الليل وهجموا على جرن الأمير الكاشف المشار إليه الكاين بأرض ناحية منية حَدَر المجاورة للمنصورة ومعهم آلات السلاح والمثقلات وتعدوا على جماعة كانوا بالجرن المذكور لأجل حراسته وأوقعوا بهم الضرب والجراحات ونهبوا أسبابهم وعقروا ناقة للأمير الكاشف وسيل فى الكشف عن ذلك وفى استخبار الحراس بالجرن المذكور وكشف عن رجل يدعى محمد بن بدر الدين القطاوى فوجد ببطنه قريبًا من معدته ضربة بمزراق قطعت الجلد وأسالت الدم وضربه بصدره... ونهبوا وقطعوا ذيل الناقة... وكتب ضبطًا للواقع ليراجع عند الاحتياج إليه جرى ذلك وحرر فى ثامن رجب الفرد سنة خمس وتسعين وألف من الهجرة».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ٨، ص ١٥٢، ١٥٣، م ٣٤٠.

التاريخ: ٨ رجب ١٠٩٥هـ/ ٢١ يونيو ١٦٨٤م.

ملحوظات:

- هجوم بدو الزهايرة على جرن كاشف – حاكم – ولاية الدقهلية.
- قدرت القوة المهاجمة بنحو أربعين رجلًا مدججين بالسلاح.
- ضرب أحد الحراس وإصابته بجروح بالغة.
- إبلاغ حاكم الولاية للحادثة بنفسه.
- عدم مبالاة البدو حتى بممتلكات حكام الولايات.

❑❑❑

ملحق «٤»

التعاون بين بدو بنى عونه وحاكم ولاية البحيرة

«لمَّا صدر الإشـهاد من مشـايخ عربان بنى عونه بولاية البحيرة بين يدى فخر النواب القاضى محمد بن العاص النايب بالحوش السـعيد بولاية البحيرة.. أشـهد على أنفسـهم مشـايخ عربان بنى عونه وكل منهم بحال الصحة والسـلامة والطواعية والاختيار من غير إكراه عليهم فى ذلك أن الأمير إبراهيم بك أمير اللوا الشـريف السـلطانى.. وحاكم ولاية البحـيرة اجتهد وبذل الهمـة والمجهود فى جرف حاجز بنى عونه من البداية إلى النهاية وسـد ما به من المقاطع والمهالك جرفًا حصينًا متقنًا حابسًـا ومانعًـا لمياه النيل المبارك من جريانه وهم المقطع المعروف بالأبيض ومقطع أبو المطامير ومقطع القنطرة وغيرها جرى ذلك وحرر فى تاسع شوال سنة ثلاث ومائة وألف هجرية».

المصدر: محكمة البحيرة: س ٣، ص ١٣٦، م ٢٥٥.

التاريخ: ٩ شوال ١١٠٣هـ/ ٢٤ يونيو ١٩٦٢م.

ملحوظات:

– تعاون مشايخ عربان بنى عونه بالبحيرة مع حاكم الولاية.

– إشهاد بنى عونه باختيارهم على قيام حاكم الولاية بجرف الجسر جرفًا مقتنًا.

– تؤكـد الوثيقـة أن دور العربان لم يكن فى كل الأحوال سـلبيًا وأن لهم أدوارًا تعضد الإدارة فى بعض الأحيان.

❑❑❑

ملحق «٥»

تركة الأمير عمر حماد البقرى بالدقهلية

«تركــة الأمير عمر حماد البقرى بناحية دِيَرب نِجم ومنشــأة صهبرة من خيول ومواشٍ وغلال وأخشاب.

دِيَــرْب نِجْم: ٣ محاريث، ٦ نوارج، ٣ جبانات، ٣ مدارى، ٥ جمال، ٨ جراريف، ٤ أفلاق بلح، ١ قصبة، ٣ سواقى كاملة العدة.

منشأة صهبرة: ٤ أثوار، ٦ جراريف، ١ ساقية صليب «عامود»، ٢ مدارى، ٣ جبانات، ٨ محاريث، ٣٠ أوتاد، ٩ قطع، ٨ نوارج، ١ ساقية كاملة العدة.

ميــت غمر: ٣ خيــول، ٣ حمير، ٥٨ ثور، ١ دايرة معدة لبيــاض الأرز، زريبة معدة لبهايم الأوسية وخزن التبن ملك الأمير عمر حماد البقرى».

المصدر: محكمة الدقهلية: س ٥، ص ٥٨، م ١٥٤.

التاريخ: ٨ شعبان ١٠٨١هـ/ ٢١ ديسمبر ١٦٧٠م.

ملحوظات:

- دخول الأمير عمر حماد البقرى ميدان التزام الأراضى الزراعية.
- التزام الأمير ثلاث قرى بكل منها أوسية.
- وجود أدوات الزراعة من محاريث ونوارج وسواقٍ وغيرها.
- امتلاك الأمير لعدد كبير من القوى المحركة «الأثوار» ودواب الحمل من جمال وخيول وحمير.
- تؤكد الوثيقة العلاقات الطيبة بين «البدو» والدولة فى بعض الأحيان.

❑❑❑

ملحق «٦»

العلاقات بين البدو والحملة الفرنسية

Au Caire 29 Frimaire an IX… Du Général Reynier

«Le Cheik Khalil Héhouen m, aremis Votre letter du 26. Les Arabs Messaids, dons on arête Les Chameaux n, ont j amis eu de relation avec nous ni en bien ni en ma Ains iln, Y aurait pas de raison de prender leur Chameaux s, ils Venaient acheter de marchadises mais comme ont dit q <ils venaient acheter de grains vous le Feres vendre au profit des grendiers en donnant le cinquiéme au cheik quil, a dé noncé. Vous rendrez au cheik des trabins les Chameaux qui ont de vous donner le letter qu> il arecue de <ibrahim Bey et vous me l> enverrez.»

المصدر: محافظ الحملة الفرنسـية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة رقم ٨، ملف ١٠، وثيقة رقم B6/ 139.

التاريخ: ١٠ ديسمبر ١٨٠٠م.

ملحوظات:

- توضح الوثيقة العلاقات بين البدو والحملة الفرنسية.
- قيام الشيخ خليل الحوين بدور الوساطة بتسليم الرسائل من وإلى الفرنسيين.
- لم يكن للفرنسيين علاقة بعرب المساعيد لا بالخير ولا بالشر.
- طلب الفرنسيين إعادة الجمال الخاصة بشيخ الترابين.

❑❑❑